المصطلح التراثي و المصطلح المعاصر في اللغة العربية: إشكاليات إبستمولوجية

د. حسن درير*

الحديث عن المصطلح حديث شائك ذو شجون يرتبط أساسا بالترجمة بل أحيانا لخصت مشاكل الترجمة في العالم العربي في غياب المصطلح. و هذا لعمري يصدق فيه المثل الانجليزي الذي يقول الصانع الرديء يلقي باللوم على أدواته. و في رأينا يمكن تفسير هذا الاضطراب بكون المعجم الاصطلاحي في العربية موزع بين معجم داخلي (أساسه الثروة المعجمية المتجسدة في المصطلحات التراثية) و معجم خارجي (أساسه الثروة المعجمية الخارجية المستعارة) وبكون الصناعة الاصطلاحية في العالم العربي تنهل من لغات متعددة مما يؤدي في حالات كثيرة إلى تواجد أكثر من مصطلح للمفهوم الواحد و بالتالي إلى "التشويش الاصطلاحي".

1- تعريفات

تقتضي منهجية البحث البدء بضبط المفاهيم باعتبارها ضرورة ملحة لتحديد عناصر الموضوع ومجاله. لذلك لا بد من تحديد مفهومي المصطلح التراثي والمصطلح المعاصر. لا نقصد بالمصطلح المعاصر في هذا البحث ذلك المصطلح الأجنبي الوافد من الخارج بل المصطلح العربي المولد حديثا أي منذ بدء النهضة العربية الحديثة منذ بداية القرن العشرين إما عن طريق الاشتقاق أو النحت أو المجاز أو التعريب. ونقصد بالمصطلح التراثي ذلك المصطلح المتأصل في اللغة العربية منذ عصور الاحتجاج أو الوارد في التراث العلمي والأدبي العربي ولاسيما إبان ازدهار الحضارة العربية الإسلامية. فأما الاشتقاق فهو صوغ كلمات جديدة لا عهد للعربية بها من قبل على الأبنية الصرفية العربية قياسا كالبنيوية والرقانة والمصرف والحاسوب والصوتيات. وأما المجاز فهو إسباغ معنى جديد على كلمة قديمة لم توضع لهذا المعنى أصلا كما في القاطرة والسيارة والجريدة والهاتف، أي هو نقل الألفاظ من معانيها اللغوية الأصلية إلى معان اصطلاحية. فالمجاز حسب تعبير محمد غاليم (1987: 35)[1] "إعطاء قيمة دلالية جديدة لبعض الوحدات المعجمية تسمح لها بالظهور في سياقات جديدة لم تتحقق فيها من قبل". فإن اقتصر الأمر على إحياء الملائم من الألفاظ العربية القديمة أو المهجورة من مضامينها كالقواميس القديمة ولاسيما معاجم المعاني[2] سمي ذلك تراثا. لذا جاز الحديث عن مصطلح تراثي لفظا مولد معنى (كالسيارة)

---

* - أستاذ اللغة الإنجليزية، كلية الآداب ، جامعة القاضي عياض - مراكش.

[1] - ويسميه التوليد الدلالي

2 - انظر مثلا محمد خليفة الأسود "أهمية معاجم المعاني في استنباط المصطلح العلمي".اللسان العربي 40، 1995: 141-153 ومحمود الجليلي. "تجارب في التعريب" ضمن الموسم الثقافي الثاني لمجمع اللغة العربية الأردني، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، 1984، ص. 23-26

ومصطلح تراثي لفظا ومعنى (كالحرف و الصوت) وآخر معاصر لفظا ومعنى (كاللسانيات والصوتيات). وأما النحت (أو الإشتقاق الكبّار) فهو "أن تؤخذ كلمتان وتنحت منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعا بحظ. والأصل في ذلك ما ذكر الخليل من قولهم: حيعل الرجل إذا قال: حيّ على" (ابن فارس، 1366هـ: 329/1). ويضيف ابن فارس في كتابه "الصاحبي" (ص 227) "العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة، وهو جنس من الاختصار... وهذا مذهبنا في أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف فأكثرها منحوت". ويعرف نهاد الموسى (1405هـ: 67) النحت أنه "بناء كلمة جديدة من كلمتين أو أكثر أو من جملة، بحيث تكون الكلمتان أو الكلمات متباينتين في المعنى والصورة، وبحيث تكون الكلمة الجديدة آخذة منهما جميعاً بحظ في اللّفظ، دالة عليهما جميعاً في المعنى". و يكون النحت لأجل تيسير التعبير بالاختصار والإيجاز.

فالنحت بهذا المعنى يشمل أربعة مفاهيم في الانجليزية هي كالتالي:

أ. Blending النحت الحقيقي أو المزج

وهو تأليف كلمة من المضاف والمضاف إليه، عند قصد النسبة إلى المركب الإضافي إذا كان علماً كعبشمي في النسبة إلى عبد شمس، وعبدري في النسبة إلى عبد الدار، أو بصورة أشمل هو تأليف كلمة عن طريق أخذ أجزاء من كلمتين كما في كهراطيس (بدل كهرباء مغناطيسي) أو كهرماء (بدل كهرباء مائي) أو برمائي (بدل بري مائي)، أو بالنسبة للمعجم اللساني كما في بيصامتي (بين صامتين interconsonantal) أو ثنمقطعي (ثنائي المقطع dissyllabic) كما في معجم علم اللغة النظري للخولي.

ب. Acronym مقتطع هجائي

وهو تأليف كلمة من تعبير أو جملة لتؤدي مؤدّاهما، وتفيد مدلولهما، عن طريق أخذ حرف أو أكثر من كل كلمة كما في البسملة المأخوذة من "بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ"، وحيعل المأخوذة من "حي على الصلاة، حي على الفلاح" وحوقل من "لا حول ولا قوة إلاّ بالله" أو اليونيسكو المؤخوذة من United Nations Educational Scientific and Cultural Organization.

ج. Affixation إضافة الزوائد أو الالصاق

وتعني إضافة زائدة (إدخال أحرف الزيادة) في أول الكلمة أو وسطها أو آخرها كما في اللاشعور واللامركزية و الماورائيات وسيكولسانيات.

د. Compounding تركيب (الكلمات)

و هي عملية صرفية تجمع فيها كلمتان أو أكثر لتكونا كلمة واحدة مع احتفاظ كل منهما بصورتها الكتابية والصوتية.

لكن النحت لا يقوم بدور كبير في اللغة العربية كوسيلة من وسائل تنمية اللغة وتكثير مفرداتها بخلاف اللغات الأروبية. يقول الدكتور صبحي الصالح (1960: 264-265) "ولقد كان للنحت أنصار من أئمة اللغة في جميع العصور، وكلّما امتدّ الزمان بالناس ازداد شعورهم بالحاجة إلى التوسّع في اللغة عن طريق هذا الاشتقاق الكبّار، وانطلقوا يؤيدون شرعية ذلك التوسع اللغوي بما يحفظونه من الكلمات الفصيحات المنحوتات.". ثم يضيف (ص 266) " ولكن النحت

ظلّ - مع ذلك- قصّة محكيّة، أو رواية مأثورة تتناقلها كتب اللغة بأمثلتها الشائعة المحدودة، ولا يفكر العلماء تفكيراً جدياً في تجديد أصولها وضبط قواعدها، حتى كانت النهضة الأدبية واللغوية في عصرنا الحاضر؛ وانقسم العلماء في النحت إلى طائفتين: فمنهم من يميل إلى جواز النحت والنقل اللّفظي الكامل للمصطلحات ومنهم من يرى "أن لغتنا ليست من اللّغات التي تقبل النحت على وجه لغات أهل الغرب كما هو مدوّن في مصنفاتها. والمنحوتات عندنا عشرات، أمّا عندهم فمئات، بل ألوف". وهذه الطائفة الثانية يمثّلها الكرملي. وهكذا ظلّ النحت بين قياس وسماع بين اللغويين إلى أن انتهى مجمع اللغة العربية بالقاهرة إلى قرار يفيد: "جواز النّحت في العلوم والفنون للحاجة الملحّة إلى التعبير عن معانيها بألفاظ عربيّة موجزة"[3].

و أما التعريب فهو اقتراض أو استعارة كلمة أجنبية وربما إخضاعها لقواعد العربية وأوزانها الصرفية والصوتية (كما في أيقونة وسيميانيات). وقد أظهرت العربية والعرب حسب تعبير الباحث فريحة (1966: 8) "رحابة صدر لاقتباس المفردات الدالة على نواحي الحضارة التي أصبحوا ورثتها و بناتها ".

و تجدر الإشارة إلى أن مفهومي المولد و الدخيل عند القدماء مرتبطان بمفهوم معين لما يسمى بعصور الاحتجاج. فكل ما لم تشهد به عصور الاحتجاج (أي كل ما لا يدخل في باب السماع الذي يقيد اللغة بالسماع و الرواية) فهو مولد (أي حسب تعبير السيوطي (1987: ج 1: 304) أي "أحدثه المولدون الذين لا يحتج بألفاظهم") أو دخيل (أي معرّب). يقول عبد السلام المسدي (1994: 113) « من أهم الآليات التي تفرزها اللغة لسد حاجات مستعمليها عندما يواجهون المفاهيم المستحدثة آلية التوليد التي يصنفها علماء اللسان إلى توليد لفظي وتوليد معنوي ". وعلى الرغم من حرص أصحاب تنقية اللغة على صفائها، فإن العربية كانت مضطرة إلى توليد العديد من الكلمات على مبدأ القياس واستعارة أخرى بعد صهرها في قالب عربي عملا بالمبدأ القائل ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب.

2) الإشكالية: أربع حالات للتداخل بين المصطلح التراثي و المصطلح المعاصر

إن الحديث عن مصطلح تراثي و آخر معاصر يحيلان على نفس المفهوم أو مفاهيم متقاربة جدا يضعنا نظريا أمام أربع حالات:

أ- وجود مصطلح تراثي ووجود مصطلح عربي معاصر كما في "فقه اللغة" / "لسانيات". و هذه هي الحالة التي تتبادر إلى الذهن. وهي كذلك الوضعية التي تعنينا أساسا للإشكاليات التي تطرحها. وهذه الحالة هي الغالبة في الأمة العربية ذات التراث اللغوي العتيد.

ب- وجود مصطلح تراثي لا يزاحمه مصطلح معاصر كما في "أصوات مجهورة" أو "مهموسة"، وهي حالة لا تطرح إشكاليات إلا إذا كان المصطلح التراثي لا يوحي تماما بالمفهوم المراد تأديته أو لا ينطبق على المفهوم الغربي الوافد من الخارج.

ج- عدم وجود مصطلح تراثي ووجود مصطلح معاصر جاهز كما في العديد من المفاهيم العلمية مثل الكشف بالصدى والكشف بالأشعة، وهي حالة فريقين من الأمم: أمة لا تمتلك تراثا لغويا أو

3 - مجلة المجمع، سنة 1953، عدد 7/ 203

علميا مكتوبا فتكون مضطرة غالبا إلى استيراد المفاهيم بمصطلحاتها الأجنبية، وأمة نشطة في مجال ابتكار المفاهيم والأدوات ومصطلحاتها.

د- عدم وجود مصطلح تراثي وعدم وجود مصطلح معاصر متأصل في اللغة بإزاء المفهوم الجديد أو المصطلح الأجنبي. و هي صورة وإن دلت على فقر لغوي فهي ليست أسوأ الحالات إذ أن تعدد المصطلح هو الوجه الآخر لعدم وجوده. وبتعبير آخر فإن الإشكاليات التي قد تطرح عند تعدد المصطلحات للمفهوم الواحد مع ما يستتبع ذلك من ضرورة توحيدها هي نفس الإشكاليات التي قد تطرح عند التفكير في اختيار الأسلوب الأنسب لوضع مصطلح ما.

يتضح من هذه الصور التي رسمناها أن وجود المصطلح التراثي ليس دائما نعمة بل قد يكون نقمة حينما يزاحم المصطلح التراثي المصطلح المعاصر دون أن يطرد أحدهما الآخر من الاستعمال أو حينما يقف المصطلح التراثي في وجه توليد مصطلح معاصر أوفى غرضا بالمفهوم المراد تأديته. إن إشكالية التراثي والمعاصر غير مطروحة لكثير من الأمم ممن لا تراث علمي مكتوب لديها، لأن أغلب هذه الأمم تبنت ما يسميه الباحث سلامة موسى (1964: 117) "بالكلمات الكوكبية" ويسميه المؤلفان ريمون طحان ودني بيطار (1984: 181، 202) بالاصطلاحات العالمية (ص181) أو "الترمنولوجيا العالمية" (ص201).

أما بالنسبة للعرب فالأمر مختلف. فالمصطلح التراثي أو التراث عموما ما يزال حاضرا. يقول الباحث رفعت سلام (15:1989) "فواقع الأمر أن قضية التراث قد فرضت نفسها على الواقع العربي بقوة، منذ أواخر الستينات، حتى كادت أن تكون الخبز اليومي للمثقفين العرب. وقد وصل بها الكثيرون إلى حد الربط القاطع بين حل إشكالياتها وحل إشكاليات الواقع العربي الراهن"[4]. وغريب حقا أن يكون ثراء اللغة هو مصدر دائها كما هي الحالة في اللغة العربية ذات القاموس العريض. لكنه بهذا الصدد يمكن التمييز بين نوعين من اللغات: لغات متقبلة للوافد من المصطلحات الأجنبية، ولغات أقل تقبلا للوافد من المصطلحات. وربما كانت هذه هي حالة اللغة العربية. يقول الباحث مصطفى التوني (16:1993) "و...اللغة العربية الفصحى لغة محافظة بحيث تشكل استثناء بين لغات العالم من حيث درجة محافظتها، وامتداد حياتها، وصمودها عبر الزمن..." إلا أننا وإن كنا نشاطره الرأي، فإننا لا نذهب إلى هذا الحد، فمسألة الأخذ والعطاء بين اللغات مسألة مفروغ منها.

3) أهمية المصطلح التراثي

بالرجوع إلى المؤسسات الأكاديمية العربية المشتغلة في وضع المصطلح العربي نرى أن المصطلح التراثي يأتي قبل المصطلح المولد حديثا كما يتضح من منهجيات مكتب تنسيق التعريب[5]. وهو يأتي كذلك (بشقيه التراث والمجاز أو الاستنباط) كأول وسائل وضع المصطلح

4 حول الإشكالية المذكورة يمكن للقارئ أن يراجع إضافة إلى المصدر الوارد في النص كلا من: محمد عابد الجابري 1991 التراث و الحداثة: دراسات ومناقشات (بيروت- الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي) وعبد السلام المسدي 1986 التفكير اللساني في الحضارة العربية (الدار العربية للكتاب)، ص. 11-15 و أكرم ضياء العمري 1985 التراث و المعاصرة (كتاب الأمة، قطر) و محمود فهمي حجازي 1970 علم اللغة بين التراث و المناهج الحديثة (مصر: المكتبة الثقافية).

5 المبدأ السادس من ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلح العربي (الرباط 1981). راجع اللسان العربي، مجلد 18، جزء 1، 1981

العربي والتقني العربي المعاصر بالنسبة للمجمعيين بدمشق متبوعا بالاشتقاق فالنحت فالتعريب فيما يعرف بالقواعد الأربع (جميل صليبا،1953: 18-27). وفي استبياناتنا مع طلبة تخصص اللسانيات من شعبة الأدب العربي احتل المصطلح التراثي بشقيه (التراث والمجاز) المرتبة الأولى من حيث التفضيل كوسيلة لوضع المصطلح. ويمثل المفضلون له نسبة 35 % من مجموع المستجوبين، وهي نفس النسبة تقريبا التي يمثلها المفضلون للاشتقاق. وبجردنا لنماذج من المصطلحات الأكثر استعمالا الواردة بالمعاجم اللسانية الثنائية اللغة احتل المصطلح التراثي المرتبة الأولى كذلك من حيث اعتماد المؤلفين عليه كوسيلة من وسائل توفير المصطلح.

4. الموقف من المصطلح التراثي: موقف الدعاة وموقف الرافضين

إلا أن الدارسين ليسوا مجمعين حول فائدة التراث في توفير الاصطلاحات العلمية والتقنية الحديثة. فإذا كان بعضهم معروفا بتقديره للتراث أو بالعودة إلى المعاجم والكتب القديمة لاستخلاص المصطلحات (من مثل أمل بن إدريس العلمي (1997:131-153) ومحمد بوحمدي (1997:118-130) في مجال الطب، ومحمد الأخضر غزال (د.ت) والمسدي (1984: 45، 49)) فإن آخرين لا يتحمسون لذلك بل يرون في ذلك خطرا كبيرا، من هؤلاء الفاسي الفهري (1986:406) وسلامة موسى (1964 : 118) وريمون طحان ودنيز بيطار طحان (1984: 206). يقول ريمون طحان ودنيز بيطار طحان (1984: 206) "أن نرغم الألفاظ العلمية القديمة على أن تتسربل بثوب الألفاظ العلمية الحديثة أمر لا يؤدي إلى الغاية المنشودة... إن العلم الحديث لا حدّ له وعدد الألفاظ القديمة محدود...". والأدهى من ذلك أن لكل لفظ في مجال العلوم الانسانية حمولاته الفكرية وأبعاده الدلالية. ويعبر سلامة موسى (1964، ط.4: 118) عن نفس الموقف من زاوية أخرى قائلا "فإن الأوربيين حين شرعوا يفكرون تفكير المنطق والتجربة، تفكير الذهن واليد، أي التفكير العلمي، وجدوا أن دقة التعبير تحتاج إلى كلمات جديدة ليست لها أية ملابسات قديمة، فاخترعوا هذه الكلمات، ليس من لغاتهم، بل من لغات قديمة لا يعرفها الجمهور."

5) المصطلح التراثي ومشاكله

مجمل القول أن استخدام التراث في إيجاد المصطلح العربي يطرح جملة مشاكل منها:

- تقصي هذا التراث العريض لاكتشاف المصطلحات الكامنة فيه. فكثير من المصطلحات التي نتداولها الآن تبدو للوهلة الأولى حديثة مع أنها تراثية أصلية. وأفضل مثال على ذلك بالنسبة لعلوم اللغة مصطلحي صامت وصائت أو مصوّت. فقد اعتقدت لوقت قريب أنهما مصطلحان حديثان في مقابل المصطلحين التراثيين حرف وحركة إلى أن اطلعت على ترجمة عبد الصبور شاهين لكتاب هنري فليش: نحو بناء لغوي جديد (ص 18-20) وكتاب التهامي الراجي الهاشمي: بعض مظاهر التطور اللغوي (ص91) فاقتنعت بأنهما مصطلحان تراثيان برغم طابع الحداثة البادي عليهما، ومثل هذا كثير ولا يتيسر إلا بسبر هذا التراث، ليس اللغوي منه فقط بل والعلمي المتعدد المجالات كذلك.

- وعلى العكس من ذلك، قد يحدث أن ينطلق واضعو المصطلحات الحديثة من فراغ أو بالأحرى يفترض أصحابها الانطلاق من فراغ، فيأتي باحث آخر عاثرا على مصطلح تراثي قديم يقوم بالغرض نفسه مما يؤدي إلى تعدد المصطلحات والمفهوم واحد. وإذا كانت الاستفادة من التراث العربي القديم في مجال المعاجم بما توفره من ألفاظ مهجورة أو ميتة أمرا مستحبا فينبغي التنبيه أن هذا الرافد أكثر عونا في المجالات والتخصصات التي برع فيها العرب قديما، مثل الطب والفلك والفلسفة... ولكنه قليل الفائدة بالنسبة للعلوم والتقنيات المستحدثة مثل الميكانيكا والكيمياء الحديثة.

- أحيانا أخرى لا يكون المصطلحان (التراثي والمعاصر) وجهين لمفهوم واحد بل يكون لكل واحد منهما مفهوم معين، أو على الأقل إطار معرفي ونظري معين. وهذا الاختلاف في الإطار المعرفي يجعل المقابلة بين المصطلح التراثي والمصطلح المعاصر الوافد أمرا صعبا للغاية وخطيرا في نفس الوقت ولاسيما في الأدب (ونسرد هنا أمثلة مثل:مجاز وكناية واستعارة...حينما توظف في مقابل مصطلحات أجنبية). وفي اللسانيات كذلك هناك خطر التداخل المفهومي (أي التشويش) ما بين الألفاظ المنتمية للتراث اللساني/ اللغوي العربي (أي التراث) و ما بين الألفاظ المنتمية أو المستمدة من اللسانيات الحديثة. يقدم "Babil Esber" (6:1998) عددا من الأمثلة الموضحة. فمفهوم " Benefactive" كما هو مستعمل في نحو الحالات الإعرابية (Case Grammar) يكاد يختلط بمفهوم (وبالتالي بلفظ تقليدي) آخر وهو الفاعل (Subject) مع أن لفظ (Benefactive) قد يتحقق كشبه جملة من جار ومجرور مؤداها لفائدة كذا.

كذلك مفهوم "Actor" يكاد يختلط بنفس المفهوم التقليدي أي الفاعل. ومن منظور آخر يقوم المصطلح العربي "خبر" كمقابل محتمل لمفهومين مغايرين وهما "Complement" في النحو اللاتيني التقليدي و"Rheme" في نحو مدرسة براك (Functional Sentence Perspective). هذا المصطلح الأخير يعود على المعلومات غير المعروفة لدى السامع في مقابل المعلومات المعروفة (أي Theme). و هناك مثل آخر يقدمه الفاسي الفهري (1986: 406)، فبرغم الميل إلى استعمال كلمة مبتدأ كمقابل للفظ "topic" إلا أن هذا لا يجوز، إذ لفظ مبتدأ "موظف في النحو بمدلول عاملي محدد، و هو مفهوم صوري ولا يمكن أن نوظفه لترجمة "topic" و هو مفهوم وظيفي". ففي هذه الحالات ينبغي اشتقاق مصطلحات جديدة في اللغة العربية لتقوم كمقابلات للمفاهيم الواردة دفعا لخطر التباس المفاهيم الواردة (من اللغة المصدرة) بالمفاهيم القديمة (من اللغة المستوردة). فعن طريق ابتكار مصطلحات جديدة أو تحوير صيغ مصطلحات قديمة يمكن إيصال المفاهيم الجديدة من دون تشويش. يقدم " Nabil Esber " (9:1998) أيضا أمثلة عن ذلك، فمثلا بدل ترجمة المفهوم "connotation" بالإيحاء (وهو لفظ قد يستعمل أيضا كمقابل ل "suggestion" أو "inspiration" يقترح لفظا جديدا أو معدلا وهو "المواحاة". ومهما يكن انطباعنا حول هذا اللفظ الأخير، أظن أن الفكرة تبقى واردة وسليمة. فعن طريق ابتكار ألفاظ جديدة أو معدّلة يحس القارئ بالجدة في المفهوم (Nabil Esber 1998 :9). لهذا ينبغي الاحتياط لدى العودة إلى المصطلح التراثي من أن يؤدي إلى اللبس أو الإبهام مع المفهوم الجديد الذي قد يختلف عنه قليلا أو كثيرا في المعنى مما يؤدي إلى خطر أن يصبح اللفظ ذا معنيين.

- ومن جانب آخر، فإن استخدام الألفاظ التراثية العربية قد يثير نفس الإشكاليات القديمة التي تعاني منها المعاجم القديمة مثل عدم الدقة في تحديد المصطلحات وكثرة المعاني للّفظ الواحد

ووجود المترادفات وغيرها من العيوب الموروثة. وكمثل عن عدم الدقة في تحديد المصطلحات يورد مصطفى الشهابي (مرجع مذكور في رشاد الحمزاوي 115:1988) كلمة "طير" التي عرفها ابن منظور في لسان العرب قائلا: الطير اسم جماعة لما يطير. وهذا التعريف يسمح بتصنيف الحشرات ضمن الطير في حين أن الحقيقة العلمية منافية لذلك. وأخيرا إذا كان " نعام تشومسكي" يراجع مصطلحاته في نفس النظرية اللغوية من kernel sentence إلى deep structure D- structure ليركز على الجديد في النظرية والمرجعيات العلمية ، فإنه سيكون من العبث البحث عن مقابل تراثي ذي إطار معرفي معين لمفاهيم تنتمي إلى أطر معرفية أخرى وتتطور باستمرار.

وما دمنا بصدد وضع المصطلح، فإن خير مثال عن الحد المزدوج للمصطلحات التراثية كلمة "مجاز" ذاتها، فهذه الأخيرة كلمة تراثية ولعل أول من أشار إلى هذه الظاهرة هو الخليل بن أحمد في كتابه "العين" (60/1) حيث عرفه بأنه: "أخذ كلمة من كلمتين متعاقبتين، واشتقاق فعل منها". إلا أنّ الاستعمال الفعلي لكمة "نحت" -كما رأينا- يثبت أنها تستعمل في مقابل أربعة مفاهيم على الأقل تتعلق بوضع المصطلحات من بينها " blending" لذلك من غير المعقول ترجمة هذه الكلمة الأخيرة بالنحت في حين أن النحت كلمة أشمل و blending جزء منها ولاسيما في لغة لا تعتمد سوى على النحت في وضع مصطلحاتها.

6. بخصوص المصطلح التراثي المعرّب

لعل أضعف نقطة يمكن أن يتّهم بها أنصار التراث تتعلق بذلك المصطلح المعرّب قديما فأصبح على غرابته تراثيا، أيكون أسبق وأحق بالوجود من مصطلح عربي حديث أو حتى أحق بالوجود من مصطلح معرب حديثا؟ أظن أن لا، و ذلك بالرغم من أنه منطقيا يستحسن أن تستفيد اللغة العربية من اللغات الأخرى الأشبه منها بنية لتوفير المصطلح العلمي المختص إذا كانت اللفظة المراد استعارتها أقرب إلى نَفَسِ العربية، أما إذا كانت غريبة فالأولى استيراد لفظة أكثر شيوعا في اللغات الحية ذات الرواج الكثير. إن المصطلح التراثي المعرب يربطنا بحضارات تراجعت والمصطلح المعاصر المعرب يربطنا بالحضارات السائدة حاليا. فحالنا في الأولى كمن ينظر إلى الوراء، وحالنا في الثانية كمن ينظر إلى الأمام. وعلى أية حال فإن "وضع الألفاظ الدخيلة أو المعربة مرحلي في اللغة" كما يقول الفاسي الفهري (359:1986) و "أنها غالبا ما تستبدل بألفاظ جديدة مادتها الأصلية من صميم اللغة" وعلى هذا استبدلت ألفاظ ك"غراماطيقي" و"طوبيقا" ب: "نحو" و "شعرية" (و الأمثلة للفاسي).

- و أخيرا فإن الألفاظ المستمدة من التراث قد تختفي فجأة كما ظهرت أو حتى دون أن يكتب لها الظهور. يذكر محمد رشاد الحمزاوي (113:1988) أمثلة عن مصطلحات استمدها الأب أنستاس الكرملي من التراث و لم يكتب لها الانتشار من مثل "دخينة" في مقابل "سيجارة" و "عِهادة" مقابل "دبلوماسية". و مع ذلك، فهذا لا يعني أن كل الجهود في هذا المجال كانت هباء. فمصطلحات من مثل "بَداهة" و "حدس" و"قياس" و"مقولات" و"منطق" هي ألفاظ من التراث العلمي العربي (الحمزاوي، 52:1988). و في مجال اللسانيات استمد بعضهم الألفاظ التراثية كما فعل المسدي (1984) في بعض مواد معجمه (ك:"أقصى حلقي"، "أدنى حلقي"، "شديد رخو"، "أدنى الحَلق"، الخ) (هليل، 47:1987)

لذا فإن العثور على المصطلح التراثي أمر شاق وقضية تطابقه مع المفهوم المعاصر أمر خطير إذ قد لا يصلح هذا التطابق إلا تجوّزا (أي لا يؤدي المصطلح التراثي المعنى المعاصر إلا عن طريق المجاز أي بتصرف في المعنى الذي وضع له أصلا). وهذا أنجح إذا لم يعد المعنى الأصلي للّفظ التراثي موظفا. فما هي حقيقة المجاز في اللغة؟

7- المجاز و التجوّز

"المجاز" ويسميه البعض ب"التوليد الدلالي" (محمد غاليم: 1987) ظاهرة مهمة في اللغة العربية نظرا للدور الكبير الذي يقوم به في مسألة اكتساب اللفظ للمعنى الجديد. وقد تناول المجاز بالبحث في الدراسات اللغوية كل من ابن جني (في خصائصه ج 2: 442-465) والسيوطي (في مزهره ج1: 355-369 و426- 433) و محمد بدري عبد الجليل (1980) و محمد المبارك (1981: 112- 223 و316- 318) وأحمد عبد الرحمن حماد (1983: 41- 58 و124- 133) ومحمد غاليم (1987) ورمضان عبد التواب (1995: 189- 205) وعبد الحق فاضل (د.ت.: 35 : 96).

يميز أحمد قدور (1989: 189) بين ثلاثة أنواع من المجاز. يقول:

لا بدّ (...) من التفريق بين نوعين من الاستعمال المجازي، أحدهما فني يثير في المتلقي هزة انفعالية، و يبعث إيحاء ولذة شعورية، والآخر، بعضه كان من النوع الأول، لكنه لطول الاستعمال والتكرار على مدى زمني طويل فَقَدَ تألقه الفني، وانضم إلى رصيد اللغة المعجمي (...) وبعضه الآخر لم يهدف مستعملوه إلى تحقيق ذلك التأثير الفني أصلا، إنما وضع أساسا بوصفه نقلا غير تصويري، وذلك للوفاء بمتطلبات التسمية المعرفية (La nomination cognitive) نحو قولنا: "رِجل الكرسي"، و "عُنُقُ الزجاجة"، و "عين الباب" ..

والنوع الأخير (ولا سيما بشقه الثاني) هو ما يهمنا هنا، يقول عمر فروخ (1981: 58) "الانتقال بالمعاني من الألفاظ المجازية جانب من جوانب العبقرية العربية في اللغة، فإن اللفظ الواحد إن استمر مدة طويلة في الدوران على الألسنة والأسماع فَقَدَ تأثيره البلاغي فَفَقَدَ قيمته الاجتماعية". ومن أجل ذلك كان العربي ينتقل باللفظ من مجاز أصبح مألوفا ضعيف التأثير إلى مجاز جديد أحسن وقعا في النفس وأحسن أثرا فيها. إلا أن حديثه هذا كان بمعرض حديثه عن كثرة الألفاظ الجنسية في القاموس المحيط للفيروزابادي. وفي نفس السياق ذكر حامد صادق قنيبي (1985: 24) نقلا عن أبي حيان التوحيدي تفسيرا لكثرة أسماء الفرج مع أنها تعد قبيحة، ذلك أن العرب "لما رأوا الشيء قبيحا جعلوا يكنون عنه، وكانت الكناية عند فشوها تصير إلى حد الاسم الأول، فينتقلون إلى كناية أخرى، فإذا اتسعت أيضا رأوا فيها من القبح مثل ما كنوا عنه من أجله، وعلى هذا فكثرت الكنايات، وليس غرضهم تكثيرها." ونجد نفس الظاهرة في لغات أخرى مثل الانجليزية.

وإن كان هذا يفسر لنا طبيعة "المجاز" في مجال الألفاظ الجنسية أو بصفة عامة الألفاظ التي يحتشم المرء عند ذكرها مما يسمى "taboo" (رمضان عبد التواب، 1995: 201-205)، فإنه لا يفسر نشوء المجاز في المصطلحات العلمية وهو ما يهمنا هنا أصلا. إن نشوء المجاز في المصطلحات العلمية أو بالأحرى نشوء المصطلحات العلمية عن طريق المجاز مرده إلى افتقار في

اللغة تكون معه مضطرة إلى استخدام رصيدها اللغوي في غير ما وضع له أولا لحدوث اكتشافات أو مفاهيم لم تكن متداولة.

و لا شك أن المجاز كان أولا تجريدا كما يقول أنيس فريحة (1966: 7) أي تجريدا للصورة المادية ونقلها إلى صعيد معنوي، بكلام آخر الصعود باللفظة من معناها الحسي إلى المعنوي. وهذه صفة تتصف بها كل لغة حية راقية ... فمن منا اليوم يقرن لفظة "العقل" بحبل الشعر الذي كانت تُربط به رِجل الجمل؟ و من منا يقرن "المجد" بامتلاء بطن الدابة، و "النفس" بعملية التنفس و"الروح" بالريح و الهواء؟ كل المعاني في طورها الأول كانت حسية ملموسة، وبتقدم الحياة والفكر من جهة، وقلة المفردات من جهة ثانية، وجد الإنسان نفسه مضطرا إلى استعمال مفردات قديمة لمعان جديدة على طريق التجوز و التوسع.

يناقش كذلك الراحل عبد الحق فاضل، واضع نظرية الترسيس، في فصلين طويلين من كتابه مغامرات لغوية (ص35-63 و 65-96) كيف أن الكلمات العربية تطورت من معان بدائية ومادية إلى معان أكثر تطورا حضاريا وأحيانا معاني مجردة. والأمثلة التي ذكرها تزيد على الستين (60) من بينها "عَقْل" و"زميل" و"حقيبة".

بصفة إجمالية يمكن للمرء أن يميز بين مراحل وأنشطة معينة برز فيها المجاز. فحينما نزل القرآن الكريم أثرى اللغة العربية بالعديد من المصطلحات الإسلامية عن طريق المجاز. والأمثلة على ذلك كثيرة: ك"الصلاة" (وهي في الأصل الدعاء)، و"الحج" (و أصله القصد)، و"الزكاة" (و هي في الأصل النماء)، و"الملحد" (و هو في الأصل العادِلُ عن الحق المُدْخِلُ فيه ما ليس فيه)، و"النافلة" (وهي في الأصل الغنيمة) و "الإيمان" (وأصله التصديق). ومثل ذلك يقال في "التقوى" و"الجنة" و"الجهاد" و"النار" و"الصدقة" و"التوحيد" و"الفرض" و"المسلم" و"السنة" و"الكافر". واستفادت العربية من المجاز في مجاز علم اللغة العربية. والأمثلة على ذلك كثيرة كذلك كما في "النحو" و"الالتفات" و"الضمة" و"الصرف" و"الكسرة" و"الإسناد" و"النصب". و كان للمجاز دور في صياغة مصطلحات العلوم ولاسيما لتسمية النباتات والأعشاب والكواكب. فمثلا "لسان الثور" و"لسان الكلب" و"لسان السبع" أسماء نباتات. وفي هذا العصر استخدم اللغويون المجاز فقالوا "السيارة" (وهي في الأصل القافلة) و"القطار" (و هو في الأصل قافلة إبل يسير الواحد بعد الآخر) و"المسدس" و"الدبابة" و"التيار (الكهربائي)" و"الهاتف".

قد يصير اللفظ الموضوع لمعنى معين (وهو حقيقة) مجازا بإطلاقه على معنى آخر في مجال أو ميدان آخر ثم يكثر استعمال اللفظ على هذا الوجه الأخير حتى يصير حقيقة أي لا يخطر على بال أحد عند سماعه إلا المعنى الأخير (السيوطي، المزهر ج 1: 368). فمعنى "العربة" المتحركة تلقائيا هو ألصق حاليا بلفظة السيارة من معنى القافلة. وعلى هذا يجوز اعتبار المعنى الأول هو الأصل والثاني هو الفرع.

يؤكد الباحث محمد غاليم (1987. 49) على ضرورة ربط المفردات كوحدات معجمية بسياقاتها التركيبية لأن "هذه السياقات التركيبية" في رأيه هي التي "تمثل المؤشر الأساسي الذي نمتلكه لتعيين المولدات الدلالية إذ لا نمتلك أي مقياس صوري داخل الوحدة المعجمية". والحقيقة أن هذا يعتبر حلا عمليا في مجال الآداب والفنون التي تفتقر إلى الدقة الاصطلاحية. لكن الأنسب في مجال العلوم الحقة أن يحقق المصطلح اكتفاءه في التعبير عن المفهوم المقصود تسميته.

فالاعتماد على السياق التركيبي لا يخدم القضية الاصطلاحية، بل يزيدها بلة بتوليد مزيد من المشترك اللفظي. وهنا تكمن خطورة المجاز في التعبير الإصلاحي العلمي. فأولى بكلمة التيار مثلا أن تحيل على مفهوم واحد في العلم الواحد. عمليا تعني كلمة "التيار" في مجال الكهرباء أو الهندسة تيارا كهربائيا، وفي مجال الرصد الجوي موجة هوائية، وفي مجال الري أو هندسة المياه قدرا من المياه. لكن وصف التيار بالموجب أو السالب يحدد معنى اللفظة بصفة أفضل في المجال الأول، ووصفه بالبارد أو الساخن يحدد معنى اللفظة بصفة أفضل في المجال الثاني، ووصفه بالجارف يحدد معناها بصفة أفضل في المجال الثالث. لكن الخطر كل الخطر يكمن في توظيف كلمة التيار داخل العلم الواحد أكثر من مرة.

بصورة إجمالية، يأخذ التطور الدلالي (المجاز) مظاهر ثلاثة: تخصيص الدلالة (المعنى) وتعميم الدلالة وتغيير مجال استعمال الكلمة (راجع مثلا السيوطي في مزهره (ج1 : 426- 433) ورمضان عبد التواب (1995: 194) ومحمد مبارك (1981: 218)). وكمثال على الصنف الأخير كلمة "عملية": "فإن معناها يختلف تبعا لما إذا كان الكلام في الجراحة أم في المالية أم في الفن الحربي ..." (رمضان عبد التواب 1995: 196).

من أمثلة التخصيص كلمة "الإيمان" و"النار" و"الصوم" في معانيها الإسلامية، واستعمال لفظ "الدابة" في الحمار (لأنه موضوع لكل ما يدب في الأرض)، واستعمال لفظة "السبت" ومعناها الأصلي الدهر لأحد أيام الأسبوع وهو جزء منه (السيوطي، المزهر ج1 : 427).

ومن أمثلة التعميم كلمة "الرائد" وهو الذي يتقدم القوم ليبصر لهم الكلأ (السيوطي، المزهر، ج1: 432) ثم سارت لمن يتقدم في الصدارة عموما ثم صارت أيضا رتبة عسكرية (لتكتمل الحلقة من الخاص إلى العام ثم إلى الخاص).

و المجاز باعتباره تغيرا في المعنى (أو التوليد المعجمي بصفة عامة) قد يقودنا إلى الحديث عن علل التطور اللغوي عامة، وعلل التطور المفرداتي خاصة، لا سيما أن المستوى المعجمي يعدّ أسرع مستويات اللغة تطورا مقارنة بالمستويات الصوتية والصرفية والنحوية (عبد الوهاب الرامي 1999: 15)[6].

8- بين اللواصق و الصيغ: للصيّغ محدوديتها

من ناحية أخرى، إن استخدام التراث بشقيه خاما ومجازا في إيجاد المقابل العربي للمصطلح الأجنبي يوازيه من ناحية ثانية استخدام الصيغ الصرفية في مقابل اللواصق الأجنبية. يبدو الأمر مبدئيا منطقيا ومنسجما مع روح اللغة العربية التي لا تلجأ كثيرا للسوابق واللواحق بنفس الطريقة التي تلجأ إليها كثير من اللغات الأجنبية إلا أنه عمليا يطرح على المستوى العملي مشاكل منها (أولا) أن الصيغ الممكن قبولها في اللغة العربية بصفة قطعية محدودة جدا، و(ثانيا)

6- عن علل التطور اللغوي يمكن للقارئ أن يراجع: التهامي الراجي الهاشمي 1978 بعض مظاهر التطور اللغوي (الدار البيضاء: دار النشر المغربية) وأحمد عبد الرحمن حماد 1983 عوامل التطور اللغوي: دراسة في نمو و تطور الثروة اللغوية (بيروت: دار الأندلس) ومصطفى زكي التوني 1993 علل التغيير اللغوي (جامعة الكويت: حوليات كلية الآداب، الحولية 13) و رمضان عبد التواب 1995 التطور اللغوي: مظاهره و علله و قوانينه (مكتبة الخانجي بالقاهرة).

أن كثيرا من هذه الصيغ ذات دلالات معينة وأحيانا هي فعلا مثقلة بالدلالات فلا يمكن تحميلها من مزيد. ولنضرب أمثلة على ذلك. فوزن "فعيل" يدل على الصفة الثابتة في نحو شريف وعظيم لكنه يدل كذلك على الصوت في نحو عويل وزئير. ويدل "المصدر الصناعي" على المذهب أو النظرية كما في بنيوية وتوليدية ويدل كذلك على وحدة التحليل كما في صرفية ... وأخيرا إن أفادت الصيغ كما أفاد وزن "فِعالة" في اشتقاق كلمات مثل صرافة وصواتة أو كما أفاد وزن افتعال في تعريب المصطلحات المنتهية بالكاسعة "ite" "itis" الدالة على مرض الالتهاب (كما في ازتناد: التهاب الزائدة appendicite/ appendicitis أو اقتلاب: التهاب القلب carditis/ cardite) (أمل بن إدريس العلمي 1997: 139- 140) فقد لا تحظى صيغ أخرى بنفس القبول. ومن ذلك أن التهامي الراجي الهاشمي (1978: 10 -79) اقترح تخصيص لفظة "صَوتة" (وزن "فَعلة") لقدر من الأصوات (في مقابل phoneme) و"صَوتة" (وزن "فَعَلة") (اسم المرة للوحدة المنطوقة في مقابل phone/ allophone) و تخصيص "صِوتة" للهيئة. وأول ما يؤخذ على هذا هو أن التركيز على الحركات وحدها للتعبير عن تغير الدلالات أمر لا يخلو من مشاكل في زمن أصبح فيه ضبط الحركات رفاهية كتابية.

9. وأخيرا

هكذا نرى أن هذا البحث يندرج ضمن إشكالية طالما تكرر البحث حولها في الفكر العربي المعاصر وهي إشكالية التراث والمعاصرة أو الأصالة و التجديد. والمصطلح بطبيعة الحال لا يخرج عن هذه الإشكالية. وهنا لا بد من التركيز على جانبين:

أولا: آليات توليد المصطلح ليست سوى آليات تولد مشاريع مصطلحات. لكن نجاح المصطلح رهين بنجاحه في "امتحان القبول" المتوقف على انتشاره في استعمالات المتكلمين والكتاب. ومعنى ذلك أن الاستعمال هو الذي يقرر حياة المصطلح وليس الوضع لأن المصطلح الذي يلقى القبول والاستعمال هو الذي يحظى بالبقاء و الاستمرار.

ثانيا: إذا كان البعض يرى أن "قيمة التراث الطبي والعلمي العربي القديم قيمة تاريخية وليست قيمة علمية ... (ولكن) ذلك لا ينفي إمكانية الاستفادة منه على مستوى المصطلح" (محمد بوحمدي1997: 119) فإننا نرى - و هو الأمر الأهم- أن التراث لا ينبغي أن يفيد بالمصطلح الجاهز فقط، فهذا أمر كما رأينا محفوف بالمخاطر، ولكن يمكن للتراث أن يفيدنا بطريقة غير مباشرة، أي يفيدنا في إطلاعنا على طرق العرب في توليد المصطلحات أو تعريبها. والمثل (مرة ثانية) يقول لأن تعلمني الصيد خير من أن تعطيني سمكة في كل يوم.

المراجع:

Esber, Nabil, 1998. "La Trans-Dénomination Terminologique en Arabe" Al-Lissan Al-Arabi, 45, 1998: 3-12

- ابن جني. الخصائص. الجزء الثاني. تحقيق محمد علي النجار. بيروت: دار الهدى للطباعة و النشر، د. ت.
- ابن فارس، 1366 هـ. مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء الكتب العربية
- ابن فارس، 1328 ه. الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. المكتبة السلفية بالقاهرة
- الأخضر غزال، أحمد. المنهجية الجديدة لوضع المصطلحات العربية. القسم الأول: البحث عن الألفاظ الموجودة في بطون اللغة. معهد الدراسات و الأبحاث للتعريب، د. ت.
- الأسود، محمد خليفة، 1995. "أهمية معاجم المعاني في استنباط المصطلح العلمي". اللسان العربي، العدد 40، ص. 141-153
- بوحمدي، محمد، 1997."المصطلح الطبي من خلال القانون لابن سينا: مصطلحات الكحالة (طب العيون) نموذجا". اللسان العربي، 43، 1997: 118-130
- التوني، مصطفى زكي، 1993. علل التغيير اللغوي. الكويت: حوليات كلية الآداب، الحولية 13، 1993
- حماد، أحمد عبد الرحمن، 1983. عوامل التطور اللغوي: دراسة في نمو و تطور الثروة اللغوية. بيروت: دار الأندلس
- الحمزاوي، محمد رشاد، 1988. مجمع اللغة العربية بدمشق و النهوض بالعربية. دار التركي للنشر
- الخليل الفراهيدي، كتاب العين. تحقيق مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي. دار ومكتبة الهلال. دت.
- الخولي، محمد علي، 1982. معجم علم اللغة النظري. مكتبة لبنان
- الرامي، عبد الوهاب، 1999. عربية الصحافة المكتوبة. سلسلة شراع، الكتاب 67
- سلاّم، رفعت، 1989. بحثا عن التراث: نظرة نقدية منهجية. بيروت: الفارابي
- السامرائي، إبراهيم، 1973."الدلالة الجديدة و التطور اللغوي". اللسان العربي، 10\1، 1973: 7-12
- السامرائي، إبراهيم، 1981. التطور اللغوي التاريخي. بيروت: دار الأندلس، ط. 2
- السامرائي، إبراهيم، 1993. العربية: تاريخ وتطور. بيروت: مكتبة المعارف
- السيوطي، جلال الدين، 1987. المزهر في علوم اللغة و أنواعها (الجزء الأول). شرح و تحقيق محمد جاد المولى بك و آخران. بيروت: المكتبة العصرية
- فليش، هنري، 1983. العربية الفصحى: نحو بناء لغوي جديد. ترجمة عبد الصبور شاهين. دار المرق، بيروت
- الصالح، صبحي، 1960. دراسات في فقه اللغة. دار العلم للملايين، بيروت
- صليبا، جميل، 1953."تعريب الاصطلاحات العلمية". مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، 28، 1953: 18-27
- طحان، ريمون و دنيز بيطار طحان، 1984. اللغة العربية و تحديات العصر. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط. 2
- عبد التواب، رمضان، 1995، ط. 2. التطور اللغوي. مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط. 2
- عبد الجليل، محمد بدري، 1980. المجاز و أثره في الدرس اللغوي. بيروت: دار النهضة العربية
- العلمي، أمل بن إدريس، 1997."الاصطلاح الطبي من التراث إلى المعاصرة". اللسان العربي 43، 1997: 131-153

- غاليم، محمد، 1987. التوليد الدلالي في البلاغة و المعجم. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، سلسلة المعرفة اللسانية أبحاث و نماذج.
- الفاسي الفهري، عبد القادر، 1986. اللسانيات و اللغة العربية. بيروت-باريس: منشورات عويدات.
- فاضل، عبد الحق. مغامرات لغوية. بيروت: دار العلم للملايين، د.ت.
- فرّوخ، عمر، 1981. عبقرية اللغة العربية. بيروت: دار الكتاب اللبناني
- فريحة، أنيس، 1966. في اللغة العربية و بعض مشكلاتها. بيروت: دار النهار النشر
- قدور،أحمد محمد، 1989. "صور من تطور لغة الشعر العربي الحديث عن طريق المجاز". عالم الفكر، المجلد 20، العدد 3، 1989، ص. 189-218
- قنيبي، حامد صادق، 1985. "التطور الدلالي (في لغة الفقهاء)". اللسان العربي، مجلد 24، 1985، ص. 19-33
- المبارك، محمد، 1981، ط.7. فقه اللغة و خصائص العربية. بيروت: دار الفكر، ط. 7
- المسدي، عبد السلام، 1984. قاموس اللسانيات. الدار العربية للكتاب
- المسدي، عبد السلام، 1994. المصطلح النقدي. مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس
- موسى، سلامة، 1964. البلاغة العصرية و اللغة العربية. القاهرة: سلامة موسى للنشر والتوزيع، ط.4
- الموسى، نهاد، 1405 هـ. النحت في اللغة العربية. دار العلوم للطباعة والنشر بالرياض
- الهاشمي، التهامي الراجي، 1978. بعض مظاهر التطور اللغوي. الدار البيضاء: دار النشر المغربية
- هلّيل، حلمي، 1987. " المصطلح اللساني و قاموس اللسانيات". اللسان العربي، 28، 1987: 29-75.